

العوامل المؤثرة على حركة النشاط الصناعي خلال العصر العباسي (132-447هـ)

-دراسة في العوامل الطبيعية-

The Factors Influencing Industrial Activity During the Abbasid Era (132-447 AH)

- A Study in natural factors-



د. أيوب مشايرية*

جامعة 08 ماي 1945 قالمة

ayoubmechairia@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/08/29 تاريخ القبول: 2025/11/22 تاريخ النشر: 2025/12/16



ملخص:

إنّ التنوع الطبيعي الذي تمتعت به أقاليم الدولة العباسية من ثروات معدنية ونباتية وحيوانية، قد انعكس ايجابا على حركة النشاط الصناعي؛ الأمر الذي نتج عنه ازدهار الأسواق التي أصبحت تعجّ بمختلف المنتجات الصناعية، غير أنّ الطبيعة في تلك الفترة أدارت وجهها للمجتمع العباسي من خلال حدوث العديد من الكوارث الطبيعية التي كان لها أثرٌ بليغٌ في تدهور الإنتاج الصناعي.

من هنا، جاءت هذه الدراسة التي قام بها الباحث بغية الكشف عن العوامل الطبيعية التي أثّرت على النشاط الصناعي بمقاربة تاريخية بين العوامل الإيجابية والسلبية في فترة زمنية ما بين 132هـ إلى 447هـ.

الكلمات المفتاحية: الصناعة؛ الطبيعة؛ مواد خام؛ كوارث طبيعية؛ العصر العباسي.

Abstract :

The natural diversity which prevailed by the regions of the Abbasid state including mineral, plant, and animal resources, positively impacted industrial activity. This led to the flourishing of markets,

* المؤلف المرسل

which became filled with various industrial products. However, during that period, nature came against Abbasid society through the occurrence of numerous natural disasters, which had a significant negative impact on industrial production. This study, therefore, aims to examine the natural factors that influenced industrial activity by adopting a historical approach that compares the positive and negative factors during the period between 132 and 447 AH.

key words: Industry; Nature; Raw Materials; Natural Disasters; Abbasid Era.

مقدمة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان فأحسن خلقه وعلمه أصول الصناعة؛ فكانت له في معيشتة من أزواج البضاعة؛ حيث شكّلت الصناعة، خلال العصر العباسي، الدّعماء الأساسية في بناء اقتصاد الدولة، ومما لا شك فيه أنّ هذا التطور الذي عرفه هذا النشاط الاقتصادي كان مرهوناً بجُملة من العوامل التي أثّرت بشكل أو بآخر في تقدّمه وازدهاره؛ فكانت للعوامل البشرية دور كبير من خلال جهود السلطة المركزية في دعمها وعنايتها لهذا القطاع الحيوي¹، والعوامل الطبيعية التي كانت و لا تزال تؤثر على حياة المجتمع.

فالتبيعة سخّرها المولى عزّ وجلّ للإنسان لكي يُستفاد منها في تلبية حاجاته الضرورية ورغباته، والمجتمع العباسي كغيره من المجتمعات استفاد من الثروات الطبيعية التي كانت موجودة في تلك الفترة خاصة في مجال الأنشطة الصناعية، وهو ما يسمح لنا بطرح إشكالية رئيسية في هذا البحث: فيم تمثّلت العوامل الطبيعية التي ساهمت في تفعيل حركة النشاط الصناعي وإنعاشها أو ميلها نحو الركود؟

و بالرجوع إلى الهدف من هذه الدراسة، فإنّ معظم الدراسات التي تناولت الحديث عن الصناعة في العصر العباسي وجّهت صوب اهتمامها إلى دراسة مختلف المنتجات كالصناعات الغذائية و النسيجية أو للصناعات التي تحتاجها الدولة كصناعات الحربية و صكّ النقود أو للصناعات الكمالية التي تفي بحاجات ومطالب الخلفاء والأمراء و رجال البلاط مثل: صناعة العطور و الخلي و الجواهرات أو لصناعة الورق و أهملت بذلك

العوامل المؤثرة فيها؛ لذا حاولت في هذا البحث تبين العوامل الطبيعية التي أثّرت على النشاط الصناعي بشقيها الإيجابي و السلبي.

أولاً- المواد الخام الأولية ودورها في تموين الصناعة:

إنّ غنى أقاليم الدولة العباسية بثرواتها المختلفة جعل منها قاعدة انطلاق؛ فأيّ صناعة لا تقوم على مادة خام لا يمكن أن تقف على قدميها و تضمّن لها منتجات صناعية تُسوّق في الأسواق العالمية، ولعلّ هذا ما أوضحه إخوان الصفا اللذين قدّموا وصفاً دقيقاً لكيفية العمل بالصناعات و ما يلزمها من آلات و طاقة، و قاموا بدراسة مختلف المواد الخام الأولية (زراعية، حيوانية، معدنية)²؛ لذلك تعدّ الصناعة من الأسس المهمة و الضرورية في اقتصاد المجتمع و تقدّمها مرهوناً دائماً بتوفّر المواد الأولية اللازمة لها، وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم المادة الخام الموجودة في الطبيعة إلى :

1-المواد الأولية الزراعية والغابية:

إنّ تنوع الغطاء النباتي و الطبيعي و ملائمة المناخ و خصوبة التربة و الثروات المختلفة التي تزخر بها مختلف أقاليم الدولة العباسية قد انعكس إيجابياً على تقدّم النشاط الزراعي و جعل منه مورداً هاماً لخزينة دولة بني العباس، و قوتاً ضرورياً لسكانها، مع العلم أنّ الله تعالى حبّى الأمة الإسلامية بالغطاء النباتي، حيث يقول سبحانه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾³.

ولقد أدرك العباسيون قيمة ما منحهم لهم الطبيعة من ثروات، فعمدوا إلى استغلال مختلف محاصيلها الزراعية، ولعلّ من مصادر الرحلات و كتب الجغرافيا، و حتى المصادر الإخبارية الأخرى، قد مكّنتنا من تسجيل إشارات عديدة تُوحى بغنى أقاليم ومناطق الدولة بثروتها النباتية و منتوجاتها الفلاحية التي تتفاوت من منطقة الى منطقة أخرى من حيث أهميتها الاقتصادية أو دورها في تموين القطاع الصناعي بالمادة الخام، و على هذا

الأساس، فالمواد الخام الزراعية تدخل فيها الانسان من خلال زراعتها وعنايته بها، حيث كانت موجودة في الطبيعة على شكل نبات أو بذور، و نجد أنّ أكثر هذه المواد الخام التي استخدمها المجتمع العباسي في صناعته:

أ- الكتان والقطن:

تكتسي مادة الكتان أهمية خاصة بوصفها مادة أولية تدخل في العديد من الصناعات النسيجية، لهذا نجد أنّ محصول الكتان قد توفّر في مختلف أقاليم الدولة العباسية و كانت لمصر الرائد الأول المشهور بزراعة محصول الكتان، كما تطوّرت زراعته أكثر في العصور الوسطى خاصة في العصر الأموي و العباسي، و هو ما أكّده المؤرخون بقولهم: إنّ الناس جميعا في العصر العباسي علموا أنّ الكتان لمصر⁴، ووُصفت مدينة كازرون الفارسية الواقعة بين البحر وشيراز بأنها بلدة عامرة يُطلق عليها دُمياط الأعاجم بتوفّرها على مادة الكتان التوزي الجميل التي يُحمل منه إلى سائر البلاد والآفاق خاصة عاصمة الخلافة العباسية بغداد⁵، بالإضافة إلى مدينة الريّ التي وصفها الجاحظ بأنّها لها مادة الكتان الذي يُحمل إلى العراق⁶، و شاهد المقدسي أثناء زيارته لإقليم الديلم وطبرستان مزارع كثيرة لمحصول الكتان، ربما كانت هذه مادة تُحمّل وتُجهّز لسائر البلدان بما في ذلك العراق.⁷

وأما القطن، أُعتبر من الحاصلات النباتية الداخلة في الكثير من الصناعات النسيجية خصوصا الملابس القطنية، ونال المشرق الإسلامي شهرة واسعة في إنتاجه بسبب توفر المناخ المناسب؛ فهو يحتاج الى المناخ الحار الرطب، وهذا المناخ موجود في إقليم خراسان، بلاد ما وراء النهر، وإقليم خوزستان، وحتى في إقليم الجزيرة.

و من أشهر الأقاليم وأعظمها التي توفّرت بها هذه المادة مدينة مرو و أشار الخليفة المأمون أنّه يستوي الشريف و الوضع من مرو: "ثلاثة أشياء الطبخ النارنك والماء البارد لكثرة الثلج بها والقطن الدلن"⁸، وأُعيد بذلك القطن من أهمّ الحاصلات النباتية التي كانت تُصدّرُها خراسان لمختلف البلدان بما فيها العراق، و يذكر الاصطخري: "أنّ إقليم الجزيرة أرضها الغالب عليها القطن، ويخرج منه زيادة على ثلاث مائة عين كلّها صافية"⁹، و

يكون بذلك الكتّان والقطن من المواد التي استخدمها المجتمع وتحوّل مادتها إلى منتوجات أكثر نفعاً من ثياب وأقمشة كتّانية وقطنية، يقول ابن خلدون متحدثاً عن فنّ النسيج: "و اعلم أنّ المعتدلين من البشر في معنى الإنسانية لا بد لهم من الفكر في الدفء كالفكر في الكدّ و يحصل الدفء باشتمال المنسوج للوقاية من الحرّ والبرد، و لا بد لذلك من إلحام الغزل حتى يصير ثوباً واحداً، و هو النسيج و الحياكة و إنّ الأمم و الحضارات إذا مآلوا إلى الحضارة فصلّوا في تلك المنسوجة قطعاً يقدّرون منها ثوباً على البدن في شكله و تعداد أعضائه"¹⁰، و عُثِرَ على العديد من القطع النسيجية في خزائن الكُسوة لبعض الخلفاء.¹¹

ب- الحبوب:

أُعتبرت الحبوب من أهم المحاصيل الزراعية التي شكّلت الجزء الرئيسي من غذاء الإنسان وقوّته في العصر العباسي فضلاً على أنّها كانت مادة أساسية للعديد من الصناعات الغذائية وقد أُعدّ محصول الحنطة والشعير والأرز في مقدّمة أصناف الحبوب التي دخلت في حياة الإنسان بشكل أساسي، إذ يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَهْمُ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾.¹²

و الواضح أنّ مختلف أقاليم الدولة العباسية قد توفّر بها محصول الحبوب مقارنة بالمواد الخام الأخرى كقصب السكر، أو القطن أو الكتان...، فلا تجد منطقة أو مدينة إلا و انتشرت بها زراعة الحبوب؛ فالعراق كان في مقدمة الأقاليم المنتجة للمحصول خاصة في مدن البصرة، الكوفة، بغداد، واسط، و الموصل¹³؛ نظراً للظروف المناخية الملائمة و خبرات العاملين في الزراعة، و يعدّ إقليم الجزيرة العربية من الأقاليم المهمة المنتجة لمحصول الحنطة و الشعير و الذرة و الأرز خصوصاً في المناطق الجافة في مُدُنْهَا كحضر موت ونجران و نالت الطائف و المدينة المنورة شهرةً واسعةً لتوفرها على الحبوب بدليل أنّ الطائف و المدينة المنورة كانتا تمّونان مكّة بالمعادن، الشعير والذرة¹⁴، و اشتهرت بلاد الشام بكثرة معادها من الحبوب في كلّ من سوريا و فلسطين و الأردن؛ وهذا ما يؤكّده قول

القلقشندي: "يوجد بها مختلف أنواع الحبوب من الحنطة والأرز والشعير والذرة والأرز و البقلّاء و العدس والحمص"¹⁵، و قد استفاد المجتمع العباسي كثيرا من الحبوب في إنتاج الدقيق و الخبز، و قد لاحظ الرحّالة الجغرافيون توفّر محصول الحنطة و الشعير في مختلف الأقاليم و المدن و القرى، و لعلّ الرحّالة الصيني "شوا - جوا" كان أكثر دقّة في وصف بغداد أثناء زيارته لها في القرن الرابع للهجري حينما لاحظ توفّر محصول الحنطة و الشعير في بغداد و أنّ الناس جميعا يأكلون الخبز و ينتجون¹⁶.

ج- التّمور:

تعدّ التّمور أكثر المواد الغذائية المنتشرة في الأراضي العربية خلال العصر العباسي، وقد أدخلت مادّتها في العديد من الصناعات الغذائية أبرزها: صناعة النبيذ ومنتج عسل التمر والدبس¹⁷، ولقد تباّهت المصادر التاريخية بجودة التمر ونوعيتها، فكانت العراق من أهمّ البلدان التي عُرفت بصناعتها وإنتاجها للتمر، ومن جملة ذلك ما ذكره الجاحظ: "أنّ مدينة البصرة كانت تُنتج ثلاثمئة (300) نوع من التمر الجيد" كالجناسرية والهلبيوت¹⁸، مما مكّنها من أن تُصدّر تمرها إلى مختلف الأمصار الأخرى.

د- الخضر والفواكه:

تعتبر الخضر من المزروعات ذات القيمة الهامة حيث يُستفاد منها في العديد من الصناعات الغذائية، إلا أنّ حضورها في المصادر التاريخية، خصوصا الجغرافية منها لم ينلَ قسطاً كافياً مقارنةً بمادة القمح و الشعير، ما عدا تلك الإشارات المتناثرة في بطون بعض المصادر، أهمها كتاب "عيون الأخبار للدينوري" الذي وصف لنا مختلف الخضر الموجودة في العصر العباسي، و المنتشرة في بعض المناطق و تشمل: البصل، الثوم، الخيار، الكراث، السلجم، الفجل، الهليون، القرع، الباذنجان، السلق، الجزر، الخس والخردل¹⁹، و الأكيد أنّ هذه المزروعات كانت أصل الأطعمة خلال العصر العباسي، و عادة ما كانت يُستفاد منها في صناعة مختلف المأكولات.

وإذا كانت الخضر لم تنل حضوراً بارزاً في المصادر التاريخية، فإنّ الفواكه كانت من الثمار التي دوّنتها مختلف الكتب الجغرافية، واشتهرت بذلك العديد من أقاليم الدولة العباسية بكثرة بساينها خاصة فاكهة الكروم، التين، الرومان، المشمش والخوخ والجوز واللوز والبطيخ وأشجار الأترج والنارجيل المستوردة من الهند، والأکید أنّ بعض هذه المواد دخلت في العديد من الصناعات الغذائية من خلال تجفيف الفواكه؛ فالكروم مثلاً كانت مادته يُصنع منها الريبوب، والتين في صناعة القطّين²⁰.

هـ- قصب السكر:

مثّل قصب السكر أحد أهم المحاصيل الزراعية، حيث تبرز أهميته في دخوله في العديد من الصناعات الغذائية الاستهلاكية، كصناعة السكر، والمعجنات، والعسل، والحلويات، وقد انتشرت زراعته على نطاقٍ واسع، ممّا ساهم في انتشار معاصره في العديد من المدن. و الواضح أنّ الموطن الأصلي لقصب السكر هو الهند²¹، ليعرف بعد ذلك انتقالاً إلى بلاد ما بين النهرين، و في العصر العباسي أصبحت بلاد خوزستان مركزاً كبيراً لإنتاج محصول السكر في المشرق الإسلامي²²، و هو ما يؤكّده قول المقدسي: "إنّ كلّ سُكّر تراه بلدان الأعجام و العراق و اليمن، فمن خوزستان يُحمل ذلك"²³، وبالمثل عُرف إنتاج محصول السكر في إقليم الأهواز، و هو الأمر الذي دفع سكان الأهواز للاعتزاز بمحصولهم، بقولهم: "و لنا السكر و أنواع التمر"²⁴، كما زُرِع قصب السكر في خُراسان، خصوصاً مدينة "بلخ"، ونفسها في بلاد فارس، و كان يُصدّر إلى البلدان المجاورة، و عُرف كذلك إنتاج السكّر في العراق و مصر، وبلاد الشام خاصة في فلسطين وغور الأردن، وهكذا أصبح انتاج السكر خلال العصر العباسي يحتل مكانة هامة لدى المجتمع العباسي ففضلاً عن استعماله وتعدد أغراضه بين الغذاء والحلويات، واستخدامه في الأدوية، فقد مثل في الدولة العباسية مورداً اقتصادياً وتجارة دولية رائجة.²⁵

ونظراً لوفرة إنتاج السكر استخدم لصناعة مختلف الحلويات خاصة في المناسبات والأعياد وشهر رمضان والاحتفالات بالمولد النبوي الشريف، ويبدو أنّ الصنّاع كانوا يتفنّنون في

تشكيلها وبمهاره، حيث كانت تصنع أبراج من السكر وتوضع حول المائدة وتقدم للضيوف وللخلفاء والأمراء، والطبقات الأرستقراطية من الأغنياء، ولقد حفل المطبخ العباسي بإنتاجه لمختلف أنواع الحلوى، وقد ساعدها في ذلك امتزاجها مع الحضارة الفارسية لهذا نجد أن مسميات الحلوى معظمها فارسية.

و-الزيتون:

حظيت أشجار الزيتون بمكانة هامة، فهي لا تحتاج إلى عناية كبيرة ولا إلى كميات وفيرة من المياه، ولذلك نجدها من أكثر الأشجار انتشاراً في المشرق العربي الإسلامي، وقد استفاد منها المجتمع العباسي في صناعة زيت الزيتون، فضلاً عن استخدامها في مجالات عديدة أخرى²⁶.

ولو عدنا إلى خارطة التوزيع الجغرافي لأشهر الأقاليم التي زُرعت فيها أشجار الزيتون، لوجدنا أنّ بلاد الشام تُعدّ من أكثر بلاد الله زراعةً للزيتون، ولا سيما فلسطين، التي كانت من المراكز الرئيسية لزراعته في العصر العباسي، وقد ضُرب بكثرة زيتونها المثل، ففي "مثل بلد فلسطين في كثرة الزيتون"²⁷، وأُعدّت نابلس الفلسطينية من أهمّ المناطق التي اشتهرت بزراعة الزيتون؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى خصّها بالشجرة المباركة وهي الزيتون، وانتشرت كذلك أشجار الزيتون في مناطق طرسوس وحلب، والغوطة وبعبك²⁸.

وكان يتمّ تصنيع وإنتاج زيت الزيتون بعد استخراجه من ثمار الزيتون، وليس من بذر الكتّان، فتُجمع ثمار الزيتون من أشجارها، ثم تُنقل إلى المطاحن ومعاصر الزيت، حيث تتم عملية العصر بواسطة معاصر خاصة، تحت إشراف أشخاص يُطلق عليهم اسم "العصارين"، بعد ذلك، يأتي دور المحتسب، الذي يتولّى التأكد من سلامة إنتاج الزيت، ويمنع الغش، فيُحدّر العصارين من عصر بذر الكتّان، حتى لا يغلو، فتنبعث منه رائحة مميزة تدل على غشه، ويُبيّن المحتسب أنّ علامة الغش تظهر بوضوح عند استخدام الزيت في الخبز الساخن²⁹.

يُمكن القول إنّ المواد الخام الزراعية من حبوب وسكر وخضر والفواكه وزيتون، استفاد منها المجتمع العباسي في تحويلها إلى صناعات غذائية أكثر نفعاً، رغم أنّ هذه الصناعات كانَ تصنيعها وإنتاجها في مجال محدود، وعادة تتمّ في البيوت والدكاكين والحوانيت إلّا أنّه اعتباراً من القرن الرابع للهجري، احتكرت الدولة العباسية إنتاج بعض السلع لأغراض مالية كاستخراج الزيوت وإنتاج الثلج وصناعة السكر، وكما ضُمَّت بعض المشروعات الإنتاجية مثل: الأرحاء والطواحين، إلّا أنّ أهمية هذه الموارد المالية كانت قليلة مقارنة بالصناعات الأخرى.³⁰

ي-الأخشاب:

تعدّ الأخشاب من أكثر المواد تنوعاً واستعمالاً في العديد من الاستخدامات، و أوضح الأنصاري في كتابه "النّبات" أهميتها، فقال: " وصنع العرب من الأخشاب مراكبهم وبيوتهم ومتاعهم ومسكنهم.....، واستفادوا منها في صناعة أعمدّتهم³¹، وقيل إنّها استُخدمت في صنع الأسلحة و السفن الحربية ومختلف المجالات الأخرى، ومن المؤكد أنّ المصدر الرئيسي لهذه المادة كانت الأشجار والغابات المنتشرة في مختلف أقاليم الدولة العربية الإسلامية: كأشجار النخيل والصنوبر والزيتون، والتي اختلفت من منطقة إلى منطقة أخرى بحسب العوامل الطبيعية والبشرية المؤثرة فيها.

وقد قدّم لنا المستشرقون أمثال: " مورييس لومبارد" و"نيكتا ليف" عدّة آراء حول مادة الأخشاب، وبنوا آرائهم بأنّ المشرق العربي خلال العصر العباسي اتّسم بمحدودية وندرة أخشابهم وانعدامها في بعض المناطق³²، وأنّ الدولة العباسية كانت تعتمد على استيراد الأخشاب أكثر من استخراجها وإنتاجها، وخلافاً لهذه الآراء نوّكد بأنّ العالم الإسلامي خلال العصر العباسي شهد تنوعاً كبيراً في غاباته وأشجاره، ودليل ذلك أنّ الخليفة العباسي المعتصم بالله نقل الأخشاب من البصرة وبغداد وسائر السواء إلى مدينة سمراء³³.

ولما كانت الأخشاب المادة الأولية المنتشرة في الطبيعة بشكل كبير وعلى مختلف أنواعها، فقد راجت صناعة الأخشاب خلال العصر العباسي التي اعتبرها ابن خلدون من ضروريات العمران، فتنوعت بذلك وتعددت أشكال وأغراض استعمال الخشب، فكانت مادة أساسية لأهل البدو والحضر سواء في البناء والعمارة، ومادةً أولية في الصناعات الحربية كالسفن والمراكب والأسلحة أو للأثاث المنزلي من أبواب وكراسٍ ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره ابن رسته أنّ مدينة بغداد بها مسجد بني بالحصن والأجر بأساطين خشب الساج المتين.³⁴

2- المواد الخام المعدنية المنطوقة:³⁵

إنّ قيام العديد من الصناعات المعدنية والتحويلية لا يمكن أن يأتي بتوفّر قاعدة من المناجم المعدنية، وبالسّهز على استخراج معادنها المختلفة منها، والعمل على سبكها، ثمّ صرفها إلى دور التصنيع، وقد عرفت الدولة العباسية خلال فترة الدراسة العديد من المناجم في كثير من المدن والمناطق، ونال كلّ إقليم الشهرة بمعادنه.

وقد شملت المعادن المنطوقة: الحديد، الرصاص، النحاس، الذهب، والفضة، إضافة إلى الأحجار الكريمة والشمينة³⁶، ولم تكن هذه المعادن متوافرة بصورة متساوية في كلّ أقاليم الدولة، وإنّما توزيعها الجغرافي يتباين من حيث الكثرة والقلّة، ومهما يكن ذلك، فإنّ العرب أطلقوا على أماكن وجود هذه المعادن باسم المناجم أو مكان التعدين.³⁷

أ-الحديد:

وهو سيّد المعادن الفلزية، ويكوّن جزءاً مهمّاً من الصّخور بأنواعها وأشدّ قوّة وأصبره ناراً، حيث يوجد في الطبيعة على هيئة مركّبات يستدعي الحصول عليه منها، واستخدم الحديد كمادّة في العديد من الصناعات، وخاصة الحربية، يقول المولى تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾.³⁸

وقد اشتهر العصر العباسي بالعديد من المناجم الذي انتشر توزيعها في مختلف الأقاليم، فأرض جزيرة العرب توفّرت فيها مناجم الحديد، خاصة في اليمن التي عُثر على الحديد في

جبل كدمل وفي أرض جدير ونعم وعمران إضافة إلى وجود الحديد في بلاد اليمامة، ونجد والحجاز،³⁹ ، كما أنّ مدينة يثرب وُجد بها معدن الحديد خاصة في قبيلة سليم التي اشتهرت بصناعة الحديد وصهره، أمّا العراق، فقد عُرفت بتوقّرها على معدن الحديد منذ القديم، حيث استخرجت الدولة العباسية معدنها منه، خاصة في شمال الموصل.⁴⁰ غيّر أنّ الدولة العباسية وجّهت أنظارها لاستخراج هذه المادّة الخام نحو إقليم فارس وهو أكثر إقليم استخرجت منه الدولة معادنها خاصة في مدينة اصطخر⁴¹ ، وأنّ معدنها يتميّز بجودته وصلابته واستفادات منها في أغراض الصنّاعة العسكرية.

ب- الرصاص:

يُعدّ الرصاص من أكثر المعادن المنتشرة في الطبيعة وله عدة أسماء مثل: الصرقات، القلعي، ودخل في العديد من الصناعات: كصناعة أقنية المياه وصناعة الزجاج ومختلف الصناعات العسكرية، وكثر استخراجه خلال العصر العباسي في مختلف الأماكن خاصة في المشرق، إلّا أنّ العباسيين جلبوا معدن الرصاص من نصبين الواقعة في الجزيرة، كما جلبوا الرصاص من الهند، خاصة بالرصاص القلعي، وبالضبط في مدينة سرنديب.⁴²

ج- الذهب:

لقد عرّف الذهب انتشارا واسعا خلال العصر العباسي مقارنة بالمعادن الأخرى، وعلى اعتبار تعدّد استخدامه في العديد من المجالات خاصة الصناعية منها، مثل: صناعة الخلي والمجوهرات وصناعة النقود وصناعة الأسلحة، علاوة على دخوله في الصناعة الطبية وتذهيب المباني والمساجد، وقد وصف العلماء خواصّ الذهب بأجمل الأوصاف وأفردوا له فصولاً، ويصفه الأبيشيبي بقوله: "حار وليّف وشدة اختلاط أجزائه المائية بالترايبية، وقيل إنّ النار لا تقدر على احتراق أجزائه، حلو الطعم، أصفر اللون، فالصفرة من نارتيه، والبراقة من صفاء مائه"⁴³ ، إذن، فهذه الخواص جعلت من معدن الذهب أولوية لدى الدولة العباسية لاستخراجه والانتفاع منه،

ومن جانب آخر ونحن نتحدث عن معدن الذهب، وجب علينا أن نُحدّد أماكن وجود المناجم، لذا ومن خلال قراءتنا لبعض المصادر والروايات التاريخية، وحتى المراجع الحديثة التي اختصّت في موضوع الذهب، فقد تَسَيّ لنا أن معدن الذهب كان منتشرًا في مختلف أقاليم الدولة العباسية التي شهدت غزارة رُغم اختلاف كمية إنتاجه من منطقة إلى أخرى وكانت أكثر البلاد شهرة: جزيرة العرب وإفريقيا (خاصة مصر)، وجنوب الصحراء وبلاد السودان، فضلًا عن انتشاره في بلاد فارس وخراسان، وبلاد ما وراء النهر وصولًا إلى أوروبا.⁴⁴

إلا أن هناك مسألة مهمة: فمن أين كانت الدولة العباسية تستخرج معدن الذهب لاستخدامه في العديد من المجالات؟ و هنا تُجمع الروايات التاريخية بأنّ الخلفاء العباسيين الأوائل استغلوا الثروة المعدنية أحسن استغلال خصوصًا لما توفّرت لديهم من تقنيات وطرق لاستخراج المعادن؛ فقد استخرجت الدولة العباسية الذهب من القسم الغربي من صحراء مصر الشرقية، وعلى وجه التحديد: المكان العلاقي، وهي أكبر المدن التي تقع بها مناجم الذهب، وفي هذا يقول اليعقوبي: «من أراد معدن التّبر (الذهب) خرج من أسوان على موضع يقال له: الضيقة بين جبلين ثم البويب، ثم البيضة، ثم غديفر، ثم جبل الأحمر و البياض ثم قبر أبي مسعود ثم واد العلاقي⁴⁵»، وهي مواضع قصدتها الدولة العباسية كونها ذات شأن كبير.

ولم يَكُن اهتمام الدولة العباسية بهذه المناطق فحسب، بل تعدّاه إلى شبه الجزيرة العربية حيث عملوا على استخراج معدن بني سليم الذي كان له شأن عظيم في العهود الإسلامية الأولى، واعتبر أغزر المعادن إنتاجًا وكان له قيمة كبيرة لدى الخلفاء العباسيين، وتدلّ الشواهد الأثرية أنّه أُستغل بشكل كبير بعد الكسور الفخارية الموجودة في المنطقة وبقايا الأرحية التي كانت تُستخدم لطحن العروق المحتوية على الذهب لفصله من الشوائب.⁴⁶

د-الفضة:

الفضة من المعادن الثمينة التي اشتهرت بها أقاليم عديدة، وتلازم وجودها مع الذهب، وتتنصف الفضة بأنها شديدة الثبوسة، وهي قريبة من الذهب لكنّها تصدأ أو تحترق وتبلى بالتراب وإذا أضفنا لها رائحة الرصاص والزئبق تكسّرت⁴⁷، واستفاد منها المجتمع العباسي في العديد من الصناعات شأنها شأن الذهب، كصناعة الحلي والمجوهرات الثمينة وصناعة النقود وغيرها.

وكان يُستخرج من الشرق الإسلامي وبالضبط من بنجهير الموجودة في مدينة بلخ⁴⁸، ولا يخفى علينا كذلك أنّ الدولة استخرجت الفضة كذلك من مناجم درعة جنوب المغرب وهذا ما تؤكدّه نصوص الجغرافيين والرحالة الذين زاروها وسجّلوا ما شاهدوه من ثروة معدنيّة وتحذّثوا عن وفرة إنتاج الفضة بها⁴⁹.

هـ- النحاس:

النحاس من المعادن الفلزية، وله تسميات عديدة، مثل: الصُّفْر والقَبْرَص، وقد استُفيد منه أيضاً في صناعات عديدة، كالصناعات العسكرية، وصناعة الحلي والمجوهرات، لكنه يُعدّ أقلّ مرتبةً من الذهب والفضة، وقد عرّف النحاس انتشاراً في العصر العباسي، وله صنفان: النحاس الأحمر، وهو لا يثير اختلافاً، والنحاس الأصفر، الذي يختلف حسب صناعته، والأماكن التي يُعمل فيها⁵⁰.

واختلف توزيع النحاس في مختلف أقاليم المشرق الإسلامي، ففي اليمن عُثر على النحاس في بني سيف وذمار القرن والبيضاء⁵¹، ففي العراق، أشار ابن الفقيه: "أنّ أرض البصرة وُجد بها النحاس"، وفي بلاد الشام عُثر على النحاس في مدينة صور، ولكن نالت بيروت شهرةً بتوفرها على معدن النحاس الأبيض⁵²، وبالحديث عن استخراج النحاس، فقد كانت الدولة العباسية تستخرج من استخراج من أصفهان، وكانت الدولة تبني منه خراجاً يُقال: بلغ عشرة آلاف حسب رواية ابن رسته⁵³.

وقد ترتّب عن وفرة المواد المعدنية الخام في العالم الإسلامي قيام وانتشار العديد من الصناعات المعدنية، خصوصاً مع التقدّم العلمي والحضاري الذي عرفته الدولة العباسية في

مجال استخراج المعادن وحسن استخدامها، فتنبّعت الإبداعات الصناعية بفعل مهارات الحرفين والصّناع، وعملت هذه المهارات على تطوّر معظم الصناعات المعدنية من أسلحة حربية وسكّ النقود وصياغة الجواهر والحليّ والأحجار الكريمة ومختلف الصناعات المعدنية الأخرى، وأتّما بدأت بسيطة وقليلة في صدر الإسلام وبلغت ذروة تطورها في العصر العباسي.

3-الثروة الحيوانية:

تُعَدّ الثروة الحيوانية من الثروات المهمّة التي منّها الله تعالى على أمّته لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّوهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾⁵⁴، ولقد استفادت الدولة العباسية من الثروة الحيوانية في العديد من الصناعات النسيجية والجلدية، وقد أشار إخوان الصفا إلى أنّ الصنائع ما هو موضوع فيها أحد الأجسام الحيوانية من اللحم والجلد والشعر والصوف والقرّ: كصناعة القصابين والشوائين والطباخين الدباغين والأساكفة⁵⁵.

وشهد العصر العباسي مختلف أنواع الحيوانات خاصة الأبقار والغنم والإبل والخيل والحمير والطيور والأسماك والنحل، ووجدت حيوانات: كالنمور والثعالب والفيلة والذئاب والتماسيح، وأفرد الجاحظ في كتابه الحيوان فصولاً تناول فيه مختلف الحيوانات الموجودة في العصر العباسي وفوائدها⁵⁶.

وهنالك صناعة ارتبطت ارتباطاً شديداً بحرفة دباغة الجلود وإنتاجها؛ من خلال عملية دبغ الجلود، حيث ساعدها توفرّ الحيوانات التي تؤخذ جلودها للدباغة كالإبل والبقر، إضافة إلى الحيوانات البرية التي كانت تعيش في الجبال، فقد اشتهرت العراق بتربية الأبقار والأغنام، وانعكس ذلك على إنتاج كمية كبيرة من الجلود استُفيد منها في صناعة الأحذية والنعال والخفاف⁵⁷.

واختصّت أماكن أخرى بتوفّر جلودها وتجهيزها لصناعات منها: مدينة بلخ، مَكّة، وبغداد والبصرة والموصل ومَرو، واستخدم الصناع والإساكفيون مختلف الجلود كجلد الأروى وجلد النمرور، وجلد الحمير والخيول والماعز والذئاب وحتى التماسيح، وصنعوا نعالاً من جلودها، وكان أفضل أنواع الجلود في بغداد، وتعرف بجلد اللكاع الأحمر، ومنه استغل المجتمع العباسي جلود الحيوانات في صناعة الأحذية ومختلف الصناعات الأخرى: كالخصر والملابس الخشنة على اختلاف طبقات المجتمع والفئات والأذواق.⁵⁸

أ- الصوف والوبر:

ورد ذكر الصوف والوبر كما ذكرنا سلفاً في القرآن الكريم لقوله تعالى ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾⁵⁹، ويوضح ابن السيدة بأن صوف الغنم كالشعر للماعز والوبر للإبل⁶⁰، وانتشرت بذلك مادة الصوف في مختلف الأقاليم، وذكرت كتب الجغرافيا صوف طبرستان بأن صوفها جيد إذ يصدر إلى مختلف الأقطار وإقليم الديلم الذي وُصف بإقليم الصوف⁶¹ والمؤكد أنّ الدولة كانت تجلب أصوافها الجيدة من أقاليم المشرق، وخاصة بطبرستان وما وراء النهر والديلم وغيرها، وأمّا الوبر يُستخرج من فراء الفئك والنمرور والإبل والثعالب التي كانت تُجلب من الهند والصين وأقاليم المشرق، وكان يُستفاد منها في صناعة الزرابي ومختلف الصناعات النسيجية.

ب: الحرير والقز:

يُطلق على الحرير قبل عزله اسم القز، وكانت أشهر مناطق العالم الموجودة فيها الحرير: طبرستان وجرجان وبلاد الديلم؛ لذا وجّهت ضرورة العناية به لكونه من المواد الهامة التي تعتمد في صناعة نسيج الحرير، وأشار الجغرافي المقدسي: "على أنّه كان يُحمل من إقليم خوزستان القز إلى بغداد"⁶²، ثم حصلت العناية بشجرة التوت التي كانت تربي على أوراقها القز التي تنامت لأهمية إنتاج خيوط الحرير بعدما ساعد المناخ على نمو أشجار التوت، واهتمت الدولة العباسية كثيراً بنوع من الحرير المعروف بالإبرسيم.

ثانيا -الكوارث الطبيعية وأثرها السلبي على النشاط الصناعي:

شهدَ العصر العباسي خلال الفترة المدروسة العديد من الكوارث الطبيعية التي كان لها بالغ الأثر على حياة المجتمع، وقد عانت الخلافة العباسية من توالي هذه الكوارث حينما خلّفت أضرارا جسيمةً على اقتصاد الدولة العباسية؛ فتضررت الزراعة وهلك الثروة الحيوانية، وأصبحت التجارة بركود، وتعطلّ الإنتاج الصناعي في بعض الفترات، غير أن المطلع على المصادر التاريخية التي تناولت الحديث عن أهم هذه الكوارث التي أصابت العراق خاصة، و المشرق و المغرب عامة، فإنّ مُعظمها لم تقدّم إحصائيات عن حجم الضرر الذي تركته هذه الحوادث على النشاط الصناعي، وإنّما اكتفت باستخدام عبارات فساد وإتلاف الغلات، و قتل خلق كثير، وهي عبارات تُعبّر عن فظاعة الخسائر سواء المادية أو البشرية منها.

ولحسن الحظّ، فإنّ هناك مصادرًا تاريخية قد وقّرت للدارسين المادة العلمية القيمة مثل: الطبري في مؤلفه تاريخ الرسل والملوك"، وابن الاثير في كتابه "الكامل في التاريخ"، وابن الجوزي في كتابه "المنتظم"، والذهبي في كتابه "تاريخ الإسلام"، وبعض المصادر التي تناولت الحديث عن إحدى الكوارث كالسيوطي في مؤلفه "كشف الصلصة عن وصف الزلزلة"؛ فقد سدّت بعض الفجوات في الكشف عن الأثر التي تركته الكوارث على الإنتاج الصناعي؛ لهذا فقد أثّرت الكوارث الطبيعية على النشاط الصناعي إمّا على الصعيد الديموغرافي، وذلك بموت فئة من الصنّاع والحرفيين، وبالتالي، نقص اليد العاملة المؤهّلة، وأصبحوا عرضةً للمجاعات والأوبئة، أو على الصعيد العمراني من خلال تهديم الدور والورشات والدكاكين، أو نقص المواد الخام الأولية في الأسواق وعبر ابن خلدون عن هذه الأوضاع بقوله : الأمصار إذا قاربت الخراب، أنثقت منها الصنائع⁶³، ومن أهم الكوارث الطبيعية التي شهدتها حقبة الدولة العباسية وأصابت العراق نجد:

1- الفيضانات والسيول:

عَادَةً مَا تَتَكَوَّن بين انهيار السدود أو الأمطار الشديدة و من ذوبان الجليد؛ ممَّا ينتج عنه تدفُّق كمية كبيرة من المياه تزيد عن حجم النهر، فيترتب عن ذلك خروج الفائض عن حافته، وقد تعرَّضت بغداد إلى كثير من الفيضانات، والسبب يُعزى إلى عوامل عدة منها: امتداد نَهري دجلة والفرات على أراضي العراق من الشمال إلى الجنوب و طول مجراهما وكثرة مياه الأمطار التي تصبَّ فيهما من خلال الوديان المؤدِّية إليهما، ولكون مصادر تغذيتهما من مناطق بعيدة داخل العراق، وتتضاعف أخطار هذه الفيضانات تزامناً مع سقوط الأمطار و ذوبان الثلج في أشهر الربيع⁶⁴.

فمن أخطر الفيضانات وأشدّها حيث أثَّرت على النشاط الصناعي وعرقلته في بعض الفترات وأدَّت إلى موت العديد من الصنَّاع والحرفين، وتهديم دور الصناعة والورشات الحرفية ما أشار إليه ابن الأثير سنة 206هـ/861م، حينما حدث فيضان كبير غرق فيه السواد وكسكر وقطيعة أمّ جعفر، وهلك فيه من الغلات الكثير وفسد الزرع، وفي سنة 232هـ/846م، نَزَلَ المطر شديد لم تَأْتِ مثله في الموصل دخل الأسواق وهدمها، وهلك فيها خلق كثير من بينهم فئة من الصنَّاع والحرفيين، وبلغ من توفي فيه مائة ألف إنسان⁶⁵. غَيْرَ أَنَّ عام 270هـ/884م شهدت بغداد فيضاناَ مُدمراً انكسرت فيه السدود في منطقة بالجانِب الغربي من نهر عيسى، فغرق الدبّاغون وأصحاب الساج بالكرخ، وذُكر أَنَّهُ غَرَق حوالي سبعة آلاف دار من محلات الجانب المذكور⁶⁶.

وتمَّ فيضانات أخرى سنة 400هـ/1009م، حيث أَنَّ نهر دجلة زادت مياهه؛ ممَّا سبَّب أضراراً كبيرة في الدور وهدمها و تضرَّر من ذلك باب التبن و محلات باب الشعير، وغرق باب الطاق، ومات فيها خلق كثير⁶⁷.

2- الزلازل:

اختلفت قوتها وتعددت أماكنها بين زلازل تحدث في المشرق وأخرى في المغرب، وأثرت هذه الزلازل تأثيراً على القطاع الصناعي نظراً لشدة قوتها، ويظهر من خلال اطلاعنا على العديد من المصادر بأن إقليم العراق وما جاورها قد عرف العديد من الزلازل المدمرة، لعل أبرزها ما ضرب سنة 203هـ/818م كل من إقليم خراسان و بلخ و مرو، و ما وراء النهر⁶⁸، غير أن المصادر لم تبين لنا حجم تأثير هذه الزلازل، واكتفت بالقول بزلزلة شديدة.

ويذكر لنا صاحب النجوم الزاهرة إحصائيات مفادها أن الموصل هلك فيها قُرابة خمسين ألف بشرٍ كان من بينهم صنّاع وحرّيقون⁶⁹ وفي عام 245هـ/859م عمّت الزلازل الأرض، خاصة في بغداد، فخرّبت الدنيا، وتهدّمت دور الصناعة والورشات، وهاجر الصناع وأشار السيوطي كذلك إلى العديد من الزلازل في بغداد التي تركت آثاراً مدمرةً على الصعيد الديموغرافي بموت فئات الصناع أو على الصعيد المادي بتهديم الورشات الحرفية⁷⁰.

نذكر من بين أهم هذه الزلازل التي تركت أثراً على النشاط الصناعي ما يقدّمه لنا ابن الجوزي أنه سنة 398هـ/1000م، حيث هدّم زلزال بغداد المنازل، ومختلف المنشآت الصناعية، وهلك الكثير من الناس بلغ عددهم ست عشرة ألف إنسان، وهاجر الناس بيوتهم إلى الصحراء، فضلاً عن تدمير الأثاث والمتاع⁷¹.

3- الرياح والعواصف والأعاصير:

قد ساهمت هذه الكوارث في إتلاف المزروعات وأضرّت باقتصاد الدولة العباسية، وكان أولها سنة 201هـ/817م حينما هبّت ريح شديدة وغيرة مطلة في مدينة واسط حجبت الرؤيا حتى اختلط القوم ببعضهم البعض⁷²، وفي سنة 234هـ/844م هبّت ريحٌ بالعراق شديد السموم لم يُعهد مثلها أحرقت زرع الكوفة والبصرة، وبغداد وقتلت المسافرين، ودامت خمسين يوماً ومنعت الصناع والتجار من المعاش في الأسواق، وأهلك خلقاً كثيراً⁷³.

وفي سنة 268هـ/880م وقعت أربع صواعق لكنّ لما شهدت المصادر عن تأثيرها⁷⁴، وفي سنوات 398هـ و399هـ/1007م -1008م هبت رياح شديدة سوداء ومرت المنازل وأتلفت النخيل والأشجار والزيتون وأثّرت على الدور والمنشآت التجارية⁷⁵.

4- البرد والصقيع والثلوج:

ويقال إنّ الصّرر الذي تركته هذه الحوادث كان معظمها إتلاف المحاصيل والغلات مع هلاك الثروة الحيوانية بموت الدوابّ الخيول والأغنام، ممّا ساهم في تعطيل الحياة الاقتصادية مثلما حدث سنوات 388/389هـ حينما تعطلت الصنّاعة بسبب البرد الكثيف والثلوج، فضلّ الناس دون عمل لعدّة أيام، ولم يستطع أحد الخروج⁷⁶.

كذلك بالنسبة لسنوات 418هـ/1027م و420هـ/1029م، حينما سقط برد كبير في العراق وعاصمة بغداد نتج عنه تدمير المزروعات وهلاك الأغنام؛ وقد أدى ذلك إلى انعدام التمر⁷⁷، وهلاك أشجار النخيل في بغداد.

5- الحرائق:

وقد كان أولى هذه الحرائق ما كان سنة 217هـ/832م حين وقع حريق عظيم بالبصرة لكن دون تحديد حجم الخسائر، وفي سنة 221هـ/336م اجتاحت حريق سوق الخرازين ببغداد واحرق الدكاكين والورشات وذهبت الأموال⁷⁸، وعرفت 242 و255هـ حرائق بالكرخ هدمت بسببها دور كثيرة، وتضرّرت من ذلك فئة الصناع والحرفيين اللذين أضحو عرضة لهذه الكوارث⁷⁹.

وفي سنة 359هـ/969م اجتاحت حريق سوق الثلاثاء، وخلف خسائر بشرية وأحرق المنتوجات الصناعية، واعتُبر الحريق الذي اجتاحت العراق خلال القرن الرابع للهجري أخطر حريق تأثّرت به الصناعة والصنّاع، وذلك أنّ السنة النار أحرقت الأساكفة وصنّاع الأحذية واحترق فيه جماعة من الناس، وبقي لمدة أسبوع⁸⁰، وفي عام 417هـ/1026م احترق الكرخ، خاصة سوق الدقاقين والنحاسين حسب ما أورده ابن الأثير⁸¹.

نلاحظ أنّ هذه الكوارث كانت تأثيراتها أعمق على النشاط الصناعي من خلال إتلاف المزروعات وقلع الأشجار، وهذا ما يؤثّر بدوره على القطاع الصناعي باعتبار أنّ معظم المواد الخام كانت زراعية بالدرجة الأولى، خصوصاً الفلاحية منها.

هكذا مثّلت الكوارث الطبيعية التي ظهرت خلال العصر العباسي أكبر التحديات التي واجهت المجتمع العراقي؛ ففضلاً عن الضرر التي تركته هذه الكوارث على جميع الأصعدة، فقد ساهمت بدورها في ظهور الأوبئة، و الأمراض و المجاعات، مما لها من انعكاسات سلبية على الوضع الديمغرافي؛ بسبب ارتفاع معدلات الوفيات، وبصورة أدقّ في صفوف الحرفيين والصنّاع، و في هذا الصدد يصفّ لنا ابن حوقل الوضع الديمغرافي للعراق خلال القرن الرابع للهجري بقوله: « فقد مات سكانها عشرة آلاف نسمة، وبقيت المنازل خاوية، ولم يبقَ منها إلاّ فئة قليلة عانت الفقر والمجاعة⁸² ».

ويرى أحد الباحثين في المجال الاقتصادي أنّ الكوارث الطبيعية على خطورتها لا يمكن أنّ نقول إنّها خربت الوضع البنيوي للحرف الصناعية، وإنّما كانت هذه التحوّلات المناخية التي شهدتها مختلف الدول خلال العصور الوسطى سبب للكشف عن التدهور الإنتاج الصناعي وتراجعته في بعض الفترات، فنصّ ابن خلدون دلالة تقريبية في السياق قاعدة العمران مفادها أنّ الصنّاع يجسدها الركود والاضمحلال جراء الكوارث الطبيعية والفتن الداخلية⁸³.

خاتمة:

في الأخير وبناءً على ما سبق ذكره في هذا الموضوع، توصّلتُ إلى العديد من النتائج التي يمكن إجمالها فيما يلي:

- إنّ الثروات الطبيعية التي زخرت بها الدولة العباسية من ثروة معدنية ونباتية وحيوانية قد مثّلت قاعدة انطلاق أساسية لقيام العديد من المنتجات الصناعية، وأتاحت الاستثمار في النشاط الصناعي و استفاد منها المجتمع العباسي في تحويل هذه المادة الخام إلى منتجات صناعية أكثر نفعاً مع الدور الذي لعبه العباسيون في الإشراف المباشر على

النشاط الصناعي، و عملوا على تنظيم الحرف و الصناعات تنظيمًا يتكيف مع اهتمام السلطة المركزية بالدرجة الأولى، وخدمة المجتمع العباسي، وظهر ذلك جلياً في توفير هذه المواد الخام الأولية و تسهيل كافة السبل لجلبها من أقاليم الدولة الإسلامية: بلاد ما وراء النهر، و فارس و المغرب و الأندلس و مصر واستغلالها واستثمارها.

—أوضحت هذه الدراسة أنّ الكوارث الطبيعية قد أثّرت سلباً على النشاط الصناعي في بعض الفترات، فتدهورت الصناعة؛ و هذا ما ألحق ضرراً على الصعيد الديمغرافي لموت العديد من الصناع، غير أنّ ما نستنتجه هو أنّ هذه الكوارث الطبيعية على خطورتها لا يمكن أن نقول إنّها خرّبت الوضع البيوي للحرف الصناعية بأكمله، وإنّما هذه التحوّلات التي شهدتها عجلت بالكشف عن تدهور الإنتاج الصناعي و تراجعها في بعض الفترات وأنّ نصّ ابن خلدون له دلالة مهمة في سياق العمران مفادها أنّ الصناعات يُجسدها الركود والاضمحلال جراء الكوارث الطبيعية والفتن الداخلية.

الهوامش:

¹ قمت بدراسة أثناء مرحلة الدكتوراه أبرزت فيها العوامل البشرية ودور الخلفاء في دعمهم للنشاط الصناعي " مع الاستاذي المشرف على الأطروحة. أيوب مشاييرة وراح اولاد ضياف: دور الخلفاء العباسيين في تنمية النشاط الصناعي خلال العصر الأول (132هـ-232هـ/749م-847م)، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، المجلد 35، العدد1، 2021، ص:1.

² إخوان الصفا: الرسائل، دار الصياد، بيروت، م1، ص290.

³ سورة الأنعام: الآية 99.

⁴ الكندي، محمد بن يعقوب: فضائل مصر المحروسة، دار الوراق، مصر، 1394هـ/1975م، ص 09؛ المقرئزي، تقي الدين: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد رينهم، ومديح الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م، ج1، ص82.

⁵ الحموي، شهاب الدين: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، م4، ص487.

⁶ الجاحظ، أبو عثمان بن بحر: التبصر بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة، تحقيق: السيد حسن، مطبعة الرحمانية، مصر، 1354هـ/1935م، ص35.

⁷ المقدسي، محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: شاكّر لعربي، دار السويدي، الإمارات المتحدة العربية، 2003م، ص299.

⁸ الحموي، المصدر السابق، م5، ص115.

⁹ الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم: المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 2004م، ص74.

¹⁰ ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: عبد الله الدرويش، دار البلخي، دمشق، 1425هـ/2005م، ج2، ص151.

¹¹ يذكر القاضي ابن الزبير: "أن محمد الأمين الخليفة العباسي لما تولى الخلافة أمر الفضل ابن الربيع بإحصاء من كان في الخزان من الكسوة والفرش وبعد أربعة أشهر تبين له أربعة آلاف جبة مطرزة بالسمر وعشرة آلاف قميص وغلالة وعنترة آلاف خفتان وألف سراويل من أصناف الثياب وأربعة آلاف عمامة، وألف طيلسان وألف رداء من أصناف الثياب وخمسة آلاف منديل وخمسة آلاف وسادة ومخدة وثلاث مئة بساط وألف وسادة ديباج وألف ستر وثلاث مئة ستر ديباج، وخمسمائة بساط طبري وألف مخدة". القاضي، ابن زبير الرشيد: الذخائر والتحف، تحقيق: محمد حميد الله، دار التراث العربي، الكويت، (د.ط)، 1959م، ص 214-215.

¹² سورة يس: الآية 33.

¹³ أ.أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادي عيلة، دار قتيبة، دمشق، 1985م، ص 56.

¹⁴ يرى الهمداني بأن اليمن بها غرائب الحبوب والبر العربي الذي ليس بخطئة، وألوان الذرة البيضاء والصفراء والحمراء، والسمسم، وزرع بها الحمص والكمون. الهمداني، أحمد بن يعقوب: صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن عبد علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط 1، 1410هـ/1990م، ص 317.

¹⁵ الفلقشندي، أبو العباس بن أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1430هـ/1922م، ج 4، ص 86-87.

¹⁶ حاتم عبد الرحمن الطحاوي: بغداد في كتابات الجغرافيين الصينيين في العصور الوسطى: قراءة في مصنف شوجوا- كوا، أعمال أبحاث مؤتمر دولي آداب الرحالة العرب والمسلمين، دار السويدي، الامارات، 2001 م، ص 99.

¹⁷ الدبس: هو غسل التمر أي: عصارة الرطب وخلافة التمر تلتقي في اليمن. ابن منظور أبو محمد أبو فضل: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1413هـ/1914م، ج 6، ص 75-76.

¹⁸ عبد العزيز، الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، مركز دراسات الوحدة العربية، مطبعة المعارف، بغداد، 1948م، ص 79.

¹⁹ الدينوري ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، 1343هـ/1925م، ج 3، ص 283-287.

²⁰ الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي: الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تحقيق: محمود الأرنؤوط، دار صادر بيروت، 1999م، ص 46.

²¹ p-Ramababu and jayanthilal ptel: the indian sugar industry، sector rodmap, 2017, p01.

²² يشير الثعالبي أنه كان يحمل إلى السلطان البويهري مع خراجها خمسون ألف رطل من السكر العسكري المنسوب الى عسكر مكرم الواقعة في بلاد خراسان. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط 1، 1971م، ص 536.

²³ المقدسي، المصدر السابق، ص: 346.

²⁴ ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط 1، 1992م، ص 232.

²⁵ T Sugita Kasa to: Sugar in The Social Life of Medieval Islam area studies, VO1-Leider Boston, Bill 2015, p 248

²⁶ ابن وحشية، أبو بكر أحمد: الفلاحة النبطية، تحقيق: توفيق فهد، المعهد العامي الفرنسي لدراسات العربية، دمشق، 1993م، ج 1، ص 39-42.

²⁷ ابن الفقيه، أبو بكر بن أحمد الهمداني: البلدان، مطبعة بريل، المانيا، ط 1، 1302هـ/1885م، ص 161.

- ²⁸ شيخ الربوة، شمس الدين: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المتنبي، بغداد، (د.ط) (د.ت)، ص200. المقدسي، المصدر السابق، ص164، 163، 161، 165، 177 و179.
- ²⁹ الماوردي، أبو الحسن: الرتبة في طلب الحسبة، تح: مركز دراسات الفقهية والاقتصادية، دار الرسالة، القاهرة، ط1، (د.ت)، ص362.
- ³⁰ سليم أبو طالب سليم، أثر المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية على الفكر الإسلامي في الدولة العباسية، مطبعة الاشعاع الفنية، مصر، 1420هـ/1999م، ص144.
- ³¹ سعيد بن أوس الانصاري أبو زيد: الشجر والكلأ، تحقيق: أنور أبو سويلم، دار الأبيدية، عمان، 1995م، ص121.
- ³² نيكيتا الياف، المشرق الاسلامي في العصر الوسيط، ترجمة: منصور أبو الحسن، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، 1986م، ص291.
- ³³ سعد رمضان الجبوري، الأخشاب واستخداماتها الحضارية في المشرق العربي الإسلامي، المكتب الجامعي الجديد، الإسكندرية، (د. ط)، 2018م، ص106.
- ³⁴ ابن رسته، أحمد بن عمر أبو علي(ت300هـ): الأعلاق النفيسة، مطبعة ليدن، بريل، (د.ط)، 1891م. ص108-109.
- ³⁵ من بين المعادن المستخرجة من باطن الأرض، والتي هي تختلف حسب كفاءتها ونوعها قابلة لطرق بالضغط والسحب ومتولدة من الأنخرة والأدخنة تحت الأرض مختلفة في اللون والكيف: الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والاسرب، ويطلق عليها بالأحجار السبعة وما اشتهر به عند الناس الذهب والفضة والنحاس والحديد وسميت بالفلزية. الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف: مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، القاهرة، ط1، 1324هـ/1907م، ص147؛ روجي الخالدي: الكيمياء عند العرب، مؤسسة الهندولي لتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م، ص50.
- ³⁶ ذكر يحيى بن مساوية وهو كبير أطباء الخلفاء العباسيين الذي خدم الخليفة المأمون، والواثق، والمتوكل أسماء الأحجار الكريمة التي كانت منتشرة في العصر العباسي: اللؤلؤ، الياقوت، الزمرد، الألماس، الخزين، المادنيج، الافلوج، الجمست، العقيق، الجزع، الدهننج، الفيروزج، السبد، اللازورد المكبي، الياسمين، الكرك، الخلنجي، البلور، القبوري، وهذه المعادن لا تكاد تخصي، منها ما يعرفها الناس ومنها لا يعرفونه. ابن مساوية يحيى: الجواهر وصفاتها، تحقيق: محمد مهدي الصفاهي، مؤسسة مطالعات التاريخ، إيران، (د.ط)، 1388م/1989م، ص27.
- ³⁷ طه خضير عبيد، واقع المعادن المنطوقة في مشرق الدولة العربية الإسلامية حتى القرن الثالث للهجري، مجلة المجمع العلمي، العراق، المجلد52، العدد3، 2005م، ص241-242.
- ³⁸ سورة الحديد، الآية 25.
- ³⁹ ابن الجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب، تاريخ المستنصر في صفة بلاد اليمن وبعض الحجاز، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 1996م، ص21.
- ⁴⁰ محسن خليل: في الفكر الاقتصادي العربي الاسلامي دراسة في مقولتي العمل والملكية دار الرشيد للنشر، العراق، ط1، ص217.
- ⁴¹ مجهول: حدود العالم من المشرق الى المغرب، تحقيق: السيد يوسف الهادي، دار الثقافية، القاهرة، ط1، 1423هـ/2002م، ص144.
- ⁴² ابن خردذابة، أبو القاسم المسالك والممالك، عناية: دي خوي، ليدن، 1889م. ص66.

- ⁴³ الأبيشي، شهاب الدين: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: محمد خير الدين طعمة، دار المعرفة، بيروت، ط5، 1429هـ/2008م، ج2، ص549.
- ⁴⁴ عباس فضل حسين المسعودي، الذهب وأثره في الحياة الاقتصادية في الدولة العربية الإسلامية حتى عام 247هـ/861م، دار المنهجية. عمان، 1443هـ/2022م، ص92-107-108 و123.
- ⁴⁵ اليعقوبي، أحمد بن أبو يعقوب: البلدان، تحقيق: محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص172.
- ⁴⁶ عبد الله بن محمد السيف، الحرف الصناعية في الجزيرة العربية، منشورات الجمعية التاريخية السعودية، السعودية، 2017م، ص20.
- ⁴⁷ الفضة: تعددت تسميات معدن الفضة وأطلق عليها باسم اللجين والصلح، والصرفات والورق والمسيح والقدير. الجاحظ، المصدر السابق، ص11؛ الأبيشي، المصدر السابق، ص549.
- ⁴⁸ الحموي، المصدر السابق، م1، ص448.
- ⁴⁹ المسعودي، أبو الحسن علي مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: كمال حسين مرعي، مكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005م، ص128.
- ⁵⁰ طه خضير عبيد، المرجع السابق، ص:243.
- ⁵¹ الحمداني، المصدر السابق، ص ص149-154.
- ⁵² طه خضير عبيد، المرجع السابق، ص:244.
- ⁵³ ابن رسته، المصدر السابق، ص:156.
- ⁵⁴ سورة النحل: الآية 80.
- ⁵⁵ إخوان الصفا، الرسائل، ج1، ص:235.
- ⁵⁶ الجاحظ، الحيوان، ص3.
- ⁵⁷ ابتسام مرهوه وبندري محمد فهد، صور من الحضارة العربية الإسلامية الأحذية والنعال، مطبعة النعمان، العراق، (د.ط)، (د.ت)، ص9.
- ⁵⁸ حمودي إمام محمد الشافعي وآخرون، دراسات حضارية في التاريخ الإسلامي، الصناعة، دار التعليم الجامعي، مصر، ط1، 2020م ص13.
- ⁵⁹ سورة النحل: الآية 80.
- ⁶⁰ ابن سيدة، المخصص، ج2، ص227.
- ⁶¹ المقدسي، المصدر السابق، ص253.
- ⁶² المقدسي، المصدر السابق، ص346.
- ⁶³ ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص96.
- ⁶⁴ إيناس عماد عبد المنعم، أثر الكوارث الطبيعية الفيضانات والآفات الزراعية على الوضع الاقتصادي في العراق من نهاية القرن الرابع الهجري حتى بداية القرن السابع الهجري، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العراق، المجلد01، العدد4، 2020م، ص160.

- ⁶⁵ ابن الأثير، أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1987م، ج5، ص528.
- ⁶⁶ الطبري، أبو جعفر محمد: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط2، القاهرة، 1968م، ج9، ص667؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1418هـ/1997، ج20، ص37.
- ⁶⁷ ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل: البداية والنهاية، تحقيق: مأمون محمد سعيد الصاغري، دار ابن كثير، بيروت، ط2، 1431هـ/2010م، ج11، ص344.
- ⁶⁸ محمد عبد المعطي محمد خزم، الكوارث والنكبات وآثارها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العراق والمشرق الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري، حولية كلية اللغة العربية، العراق، المجلد الثاني، العدد 32، ص201.
- ⁶⁹ ابن تغري، جمال الدين أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، مصر، 2016، ج2، ص270.
- ⁷⁰ عبد الرحمن أبو بكر بن محمد السيوطي، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، دار المكتبة الأزهر، مصر، رقم المخطوط 45 ورقة 22.
- ⁷¹ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمان: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (د.ت)، ج7، ص238، 243.
- ⁷² الطبري، المصدر السابق، ج8، ص547-548.
- ⁷³ الذهبي، المصدر السابق، ج17، ص12.
- ⁷⁴ الطبري، المصدر السابق، ج9، ص602.
- ⁷⁵ ابن الجوزي، المصدر السابق، ج7، ص238، 243.
- ⁷⁶ ابن الجوزي، المصدر السابق ج15، ص14-15؛ الذهبي المصدر السابق، ج1، ص23.
- ⁷⁷ ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص703-726.
- ⁷⁸ ابن الجوزي، المصدر السابق، ج11، ص4.
- ⁷⁹ محمد عبد المعطي ومحمد حزم، المرجع السابق، ص2031.
- ⁸⁰ ابن الجوزي، المصدر السابق، ج14، ص281.
- ⁸¹ ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص693.
- ⁸² ابن خلدون، المقدمة، ج2، 96.
- ⁸³ عبد الهادي البياض، أثر الكوارث الطبيعية في المجال الاقتصادي بالمغرب والأندلس، المجلة العربية، مكتبة الملك فهد الوطنية (د. ط)، 1434هـ/2012م، ص81.